رابطة العالم الإسلامي

المجمع الفقهي الإسلامي

مؤتمر الانحرافات الفكرية بين
حرية التعبير ومحكمات الشريعة

آثار ونتائج الانحرافات الفكرية

معالي الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد
المستشار بالديوان الملكي

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد

إن المتغيرات التي يعيشها العالم اليوم قد تؤثر على كثير من الأصعدة في التصورات والتشكلات. والتعامل مع تلك المتغيرات أضحى هماً مشتركا بين المفكرين وأصحاب الرأي وصناع القرار من كافة المستويات والتخصصات، وما زالت جهود الدارسين لأحوال المجتمعات ومكوناتها يعنون بأثر هذه المتغيرات وقد يوجد من يستغل هذه المتغيرات لتغذية الصراعات لأغراض سياسية أو اقتصادية أو فكرية مما أدى إلى وجود انحرافات في داخل بعض المجتمعات، والمجتمعات المسلمة ليست في معزل عن ذلك كله، وهذا من سنة الله في التدافع بين الخير والشر، وقد أحسن الإخوة في رابطة العالم الإسلامي بالعزم على إقامة مؤتمر يعنى بدراسة «**الانحرافات الفكرية بين حرية التعبير ومحكمات الشريعة**» وكان من إسهام الباحث الحديث عن آثار الانحرافات الفكرية ونتائجها وورقة البحث تدور حول خمسة محاور هي من نتاج أقلام جملة من الباحثين في هذا الشأن رأى الباحث الاسهام في تقريبها، وهذه المحاور هي:

المحور الأول: تعريف الانحراف الفكري.

المحور الثاني: هدي النبي عليه الصلاة والسلام في التحصين من الانحراف الفكري.

المحور الثالث: خطورة الانحراف الفكري.

المحور الرابع: أصول في حماية فكر المسلم من الانحراف.

المحور الخامس: أصل أسباب الانحراف الفكري.

سائلاً المولى للجميع دوام التسديد والتوفيق وأن يحفظ المسلمين من كل شر وفتنة وأن يجمع كلمتهم على الحق والهدى إنه سميع مجيب.

أبيض

المحور الأول
تعريف الانحراف الفكري

الفكر في اللغة:

يرى ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أن مادة فكر تفيد تردد القلب في الشيء يقال فكَّر إذا ردد قلبه معتبراً ورَجُل فِكِّير أي كثير الفكر .ويرى صاحب القاموس المحيط أن الفكر هو إعمال النظر في الشيء، أما صاحب المصباح المثير، فإن الفكر عنده تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني ويقال: لي في الأمر فكر أي نظر رؤية.

اولاً: بين معنى الفكر في اللغة والاصطلاح:

قال ابن منظور – رحمه الله تعالى –: الفكر إعمال الخاطر في الشيء.

وقال الأزهري – رحمه الله تعالى –: التَّفَكُّرُ: اسم للتَّفكير، ويقولون: فكّرَ في أمره، وتفكَّرَ، ورجل فِكِّير، كثير الإقبال على التّفكُّرِ، والفِكْرَة، وكلُّ ذلك ذلك معناه واحد، ومن العرب من يقول: الفِكرُ للفكرة، والفِكري.

وقال العلامة الشنقيطي – رحمة الله تعالى –: التفكر: التأمل، والنظر العقلي. وأصله: إعمال الفكر.

وقال الإمام الطبري – رحمه الله تعالى – إن أهل الفكر هم: أهل التمييز بين الأمور، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور.

وهكذا يتضح من التعريفات السابقة لكلمة الفكر، والتفكر، وأهل الفكر . حقيقة وأصل الكلمة، وأن هناك نتيجة مهمة، وهي: أن الإسلام حينما دعا إلى التفكر، في مثل قوله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٦).

ومن الأحاديث في مثل قوله ﷺ في حديث رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة الطويل.. فيقول: «يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا . إذا قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه . ويقال: لفخذه ولحمه وعظامه انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه».

وقوله ﷺ: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره».

يفرق الأصفهاني بين الفكر والتفكير فيقول: الفكر قوة مطرفة للعلم إلى المعلوم، والتفكر هو تلك القوة بحسب نظر العقل للإنسان دون الحيوان.. لذا روي «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله».

وعند ابن القيم «هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منها معرفة ثالثة» .

وقيل إن الفكر هو إعمال العقل في مشكلة من المشكلات من أجل الإحاطة بها وفهمها إعطاء الحلول لها.

وعند المناطقة: الفكر: حركة النفس في المعقولات وقالوا أيضا إنه انتقال النفس من المطالب إلى المبادي ورجوعها من المبادي إلى المطالب.

ولاشك أن الفكر هو الوعاء الذي تخرج منه تصرفات الإنسان وإذا كان فكر الإنسان سليماً فسلوكه قويم وإذا كان منحرفاً فسيكون مضطرباً.

ثانياً: تعريف الفكر في الاصطلاح، هو:

١- ما ذكر العلامة الشنقيطي - رحمه الله تعالى - بقوله: (الفكر في الاصطلاح: حركة النفس في المعقولات، وأما حركتها في المحسوسات فهو في الاصطلاح تخييل .. والفكر لا يكون إلا في القلوب).

٢- ويقول الإمام أبو الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى - الفكر هو: (النظر في الأمر، ليقف الناظر على صحته، أو بطلانه).

٣- وقيل المقصود من الفكر: إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة؛ لأجل الوصول إلى المطلوب . والمطلوب هو: العلم بالمجهول الغائب.

٤- وقيل: إن الفكر هو حركة عقيلية بين المعلوم وبين المجهول

إذن فالفكر هو: استخدام العقل، وتوظيفه للوصول إلى الحقائق والسلامة والأمان.

تعريف الأمن الفكري:

هو حفظ العقول من المؤثرات الفكرية والثقافية الضارة المنحرفة عن طريق الاستقامة سواء في مجال الشهوات أو الشبهات..

أو هو: (حفظ عقول الناشئة... الخ).

بمعنى: حماية الأمة - وبخاصة شبابها - من أي انحراف خلقي أو سلوكي .. أو فكر ضال، أو معتقد باطل، أو رأي هدام، أو اجتهاد خاطئ صادر من غير أهله.

التعريف المختار:

طمأنة الفرد والمجتمع على معتقداته ومبادئه التي يؤمن بها والحرية في ممارستها بالحديث عنها وحمايتها

لم أجد في قراءاتي تعريفاً للأمن الفكري يستجمع عناصره ويجلي حقيقته فاجتهدت في إيراد هذا التعريف . وقد استجمع العناصر التالية:

- الطمأنينة وهي الأمن المنشود.
- المعتقدات والمبادئ وهي الفكر بكل دلالاته من العقائد القلبية والشعائر الممارسة والقناعات كما تعني المحرمات والممنوعات في تحقيق اجتنابها والابتعاد عنها.

- الحرية في الممارسة لأن التضييق يولد إرهابا فكريا وخللا في الأمن الداخلي والنفسي لدى الفرد والمجتمع.
- الحديث عنها: لأن البوح بها جزء من الحرية المطلوبة أما الكبت والمتابعة السلبية فتتنافى مع الأمن الفكري المنشود بل قد تقود إلى التمرد والعمل السري.
- الحماية إذ إن مسؤولية الدولة ومؤسساتها أن تحمي فكر الأمة وعقائدها ومبادئها وعاداتها الحسنة وتقاليدها المرعية لأن انتهاكها والسماح باستباحتها يؤدي إلى خلل واضطراب لا يخفى.

الانحراف:

هو الميل إلى الحرف أي الطرف وهو العدول عن الشيء فالانحراف هو الخروج عن جادة الصواب والبعد عن الوسط المعتدل ومباعدة الاتزان .ويكون الانحراف الفكري باختلال في فكر الإنسان وعقله والخروج عن الوسطية والاعتدال في فهمه وتصوراته للأمور الدينية وغيرها.

الانحراف الفكري في الاصطلاح:

هو الفكر الذي لا يلتزم بالإسلام عقيدة وشريعة مع خروج على الأعراف والتقاليد الاجتماعية الحسنة .. أي أنه الفكر الشاذ الذي يحيد ويخالف تعاليم الإسلام .والفكر السليم مناعته نابعة من طبيعته ومقوماته الذاتية ومقومات.

ولا شك أن الانحراف الفكري من أخطر أنواع الانحراف المهددة لأمن المجتمع واستقراره فالفكر المنحرف الذي يؤثر على الأمن هو الفكر المتطرف الذي يتخذ من الدين مطيةً لنشر فكره وترويجه في المجتمع ويبدأ بالأسرة ومظاهر خروج الفكر المنحرف منها عن طريقه سلوكيات شاذة تكون هدفها المعارضة على المستويات الدينية والسياسية والاقتصادية والتربوية والإعلامية والأمنية.

ويلاحظ صيانة الإسلام للأمن الفكري من جهتين:

الأول: داخل المجتمع المسلم وذلك بما يلي:

١- توحيد مصدر التلقي في العقائد والعبادات والقضايا والحوارات والنوازل الكبرى التي تمس حياة المسلم بخاصة والمسلمين بعامة:

ومثال ذلك:

حين رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قطعة من التوراة ماذا قال ؟:

قال عليه الصلاة والسلام: (أفي شك أنت يابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي).

* النهي عن الابتداع في الدين. فالأمن الفكري يضطرب إذا انتشرت البدع .. التي مردها ضعف العقل ليس إلا ..

يقول ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد) .

وقال عليه الصلاة والسلام (إياكم ومحداث الأمور فإن كل محدثة بدعة).

* تحريم الإفتاء بغير علم:

* فالفتوى كما تُعَّرف بأنها (إخبار عن حكم الله تعالى في إلزام أو إباحة).

* القول على الله بغير علم، وهذا من أعظم المحرمات فهو قرين الشرك قال تعالى: ﴿**وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأعراف: ٣٣)

ثانياً: فَي العلاقات مع الآخرين من غير المسلمين:

حيث رسم الإسلام دائرتين في هذا المجال لصيانة الأمن الفكري..

أحدهما: تختص بأنه لا التقاء مع المشركين والكفار في مفهومهم وعباراتهم وثقافتهم وفكرهم من حيث الواقع.. ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)**﴾ (الكافرون).

الثانية: تخص العلاقة مع أهل الكتاب فيما يتعلق في دعوتهم إلى الدين ومجادلتهم بالحسنى ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٤).

ولا مانع من التعامل معهم فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية العادية كما هو حاصل من إباحة الإسلام للزواج منهم، وأكل ذبائحهم قال تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ (المائدة: ٥) وقوله تعالى: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**﴾ (المائدة: ٥).

وقد توفي الرسول ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه منه..

هدف الأمن الفكري:

فكما أن مهمة الأمن الوطني تتلخص: بتوفير السلامة الوطنية للجميع ضد أية اعتداءات أو تجاوزات أو بلبلات أو أية مداخلات أخرى من شأنها أن تخلق وتشيع في المجتمع حالة من الفوضى والاضطراب...

فمهمة الأمن الفكري تتلخص بتوفير السلامة والطمأنينة للجميع ضد كل الاتجاهات ذات الطابع الفكري التي من شأنها أن تقوض البناء الفكري القويم، وإحلال أفكار ومفاهيم بديلة هزيلة وربما ضالة أو منحلة ذات أهداف وأبعاد شخصية أو مصلحية أو مناهضة للدين والقيم والأخلاق وقد تعارض الدين والشرع .. فينساق خلفها ضعيف الدين والإدارة وضعيف الوطنية وإن شئت فقل فهم كالرعاع الذين يساقون في مهب الريح وأدراجه بدون فهم أو وعي أو إدراك أو معرفة أو علم أو فكر سليم ..

لذا على أهل العلم والدين والصلاح والمربين الربانيين المخلصين أن يعملوا جاهدين للمحافظة على عقل سليم يملك القوة والقدرة على

التقبل، ويحافظ على ثوابت الشرع وأهدافه ومقاصده ومصلحة الدين والدنيا .. وعلى هذا يعتبر الأمن الفكري بالنسبة لبقية الأمن، بمثابة القلب بالنسبة لبقية الأعضاء - أعضاء الجسد إذ يقول النبي ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

كذلك الحال بالنسبة للأمن الفكري إذ إن في كيان الأمن جانبا مهما إذا صلح صلح الأمن كله وإذا فسد فسد الأمن كله ألا إنه الأمن الفكري.

وتتقارب معاني الأمن في كل من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي حيث تلتقي جميعها على أن الأمن هو تحقيق السكينة والطمأنينة والاستقرار على مستوى الفرد والجماعة.

فالأمن في المعنى اللغوي ضد الخوف، والمستأمن: المستجير ليأمن على نفسه، والأمانة: ضد الخيانة، وآمن به: صدقه، والإيمان: الثقة والتصديق وقبول الشريعة والعمل بها، والأمين: القوي.

مفهوم الأمن الفكري وأهميته وأهدافه:

يعد الأمن الفكري أحد أبرز المصطلحات التي بدأت تأخذ اهتماما ومركزاً متقدما في ظل التطورات السريعة التي شهدها العالم على كافة الأصعدة (ويمكن تعريفه هنا بأنه: صون العقل عن المخالفات الشرعية او المخالفة لأنظمة المجتمع وتقاليده الحسنة المرعية).

وتنبع أهمية الأمن الفكري من أهمية العقل ومنزلته ؛ فالعقل محرك الإنسان وقائد توجهاته، وهو مدار الحسن والذم والقبول والرد، وبه يستطيع الإنسان أن يتخذ قراراته في هذه الحياة سلبا أو إيجابا.

ومن هنا فقد تركز التوجيه إلى مخاطبة العقول والوصول إليها وهذا لا يتطلب عدة ولاعتادا ولا طائرات ولا معدات، والأمر الذي يجعل تأثير الكلمة والقلم أشد خطرا من الغزو العسكري ؛ لأن من ملك العقل

وجه التفكير، ومن وجه التفكير فرض قيمه ومعتقداته ولعل مما تحسن الاشارة إليه في هذا الصدد ما نبه إليه القرآن الكريم وبينه من أن محل الخصومة هو الفكر والعقائد تأملوا قول الله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ (البقرة: ١٠٩).

وقوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ (البقرة: ١٢٠) ويقول سبحانه: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ (البقرة:٢١٧) ويقول سبحانه: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾ (النساء: ٨٩).

إن إبعاد المسلمين عن دينهم يتخذ وسائل عدة منها إضعاف العلوم الإسلامية والعربية وإضعاف مكانتها والعبث الفكري .ويتجلى أثر الانحراف الفكري حين يقابل نفوسا ضعيفة يأخذها الانبهار او الانهيار أمام الجديد من القول أو الفكر أو السلوك دون أن تضعه على موازين الإسلام لتقويمه والحكم عليه.

لقد انتشرت في وقتنا آراء ومذاهب، ترفع الشعارات والقيم النبيلة كالعدل والمساواة بين الناس، والحرية وحقوق الإنسان ولكن عند التطبيق أو الممارسة يكون الحال شيئاً آخر فتغلب المصالح والأهواء والرغبات والميول.

وتأسيساً على ما سبق تظهر الحاجة إلى الأمن الفكري الذي يتصدى لكل فكر دخيل ويحمي الانسان من الانحراف أو الخروج عن الوسطية والاعتدال في فهمه لمختلف القضايا ويهدف إلى حفظ النظام العام وتحقيق الأمن والطمأنينة والاستقرار في مناحي الحياة المتعددة كما يهدف الى أن يعيش الناس في بلادهم آمنين على أصالتهم وعلى ثقافتهم المستمدة من دينهم .

المحور الثاني
هدي النبي عليه الصلاة والسلام في تحصين الأمة

إن التوحيد والعقيدة السليمة منهج بينه رسول الله ﷺ لأمته، فقد كان عليه الصلاة والسلام يربي الأمة على التوحيد في مكة ثلاثة عشر عاماً، فكان جل ما ينزل على المسلمين في هذه الفترة هو في شأن التوحيد والعقيدة، واستمر على ذلك أيضاً في المدينة .

ولقد سلك النبي ﷺ في حماية جناب التوحيد طرقاً عدة منها -:

الحث على التمسك بالكتاب والسنة، فعقيدة الإنسان معرضة للتغير والتبدل لما تواجهه من الفتن في هذه الحياة، فالإيمان عرضة للنقص والانحراف، بل قد يكون معرضاً للزوال بالكلية نسأل الله السلامة، فيعود الإنسان إلى الضلال بعد الهدى، وإلى الكفر بعد الإيمان .

ولقد نبه الرسول ﷺ صحابته إلى الفتن بأحاديث كثيرة، منها ما ورد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تَشَرَّف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذاً فليعذ به».

ولما كانت الحال كذلك فإن رسول الله ﷺ لم يترك الأمة نهباً لهذه الفتن، فقد حرص عليه الصلاة والسلام على صيانة العقيدة وتحصين الإيمان بالحث على التمسك بالكتاب والسنة، فمن توجيهاته ﷺ في التمسك بالكتاب والسنة للسلامة من الضلال، والنجاة من الفتن: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه».

كما أوصى باتباع سنته وسنة الخلفاء من بعده فعن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: إن هذه

موعظة مودع، فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ».

ومن منهجه ﷺ التحذير من الخوض في الشبه، ومن لم يكن عندهم حصانة من الإيمان والعلم الكافي، فإنه يخشى عليهم من ضعف أو شكّ في إيمانهم .والبعد عن مكان الفتنة وعدم الخوض فيها أسلم مهما كان لدى المسلم من الإيمان والعلم .

بل لم يكتف النبي ﷺ لتحصين إيمان أهل الإسلام بالحث على التمسك بالكتب والسنة، و بالتحذير من أماكن الفتن، والتحذير من الخوض في الشبه، بل دلهم على المخرج من ذلك في ذلك وحثهم على التحصن بالعمل الصالح، لما فيه من الأثر الكبير لسلامة عقائدهم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ «بادروا بالأعمال، فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا» في هذا الحديث يحث الرسول ﷺ على المبادرة بالأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة، المتكاثرة، المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر، ووصف رسول الله ﷺ نوعاً من شدائد تلك الفتن، وهو أن يمسي مؤمناً، ثم يصبح كافراً، أو عكسه، وهذا لعظم الفتن يتقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب.

وأوضح من ذلك قوله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي».

المحور الثالث
الغزو الفكري ومشروع الانحراف

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧). وقال عز شأنه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩).

والغزْو الفكري لا يخرج عن معنى هذه الآيات وأمثالها، فهو نهج انتهَجَه أعداءُ الإسلام، دون الغزْو العسكري في الحرب على الإسلام وأهله، والَّذي يرجع اللّجوء إليْه إلى أحد سببَيْن:

١- فشل الغزْو العسكري، والتَّصفية الجسديَّة، فاستبدلوا بها الغزْو الفكري والتصْفية الذَّاتية.

٢- العمل على تفريغ العُقُول والقلوب من عوامل النَّصر والانتصار والمناصرة؛ تهيئةً للغزو العسْكري.

مفهوم الغزو الفكري:

الغزْو الفكري: «هو تسلط الأعْداء على أمَّة من الأمم بأدوات، وأساليب مختلفة؛ لتدْمير شخصيتها وإضعاف عزائمها وهدم مقوّماتها، وانتهاب ممتلكاتها».

أهداف الغزو الفكري:

يُمكن تبين أهداف الغزو الفكري من أحد طريقين:

الطريق الأولى: ما أخبر الله به من ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وعلى هذا؛ فإنَّ القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة هما المرْجع الأوَّل في معرفة أهداف الغزْو الفكري لأعداء الإسلام، فكلُّ الآيات والأحاديث

التي بيَّنتْ موقف الكفَّار من الإسلام ومكْرهم بالمسلمين ومكايدهم في النَّيل منهم - هي المفصحة عن الهدف الحقيقي للغزْو الفكري.

الطريق الثَّاني :الكتُب المصنَّفة والأبحاث والدّراسات، الَّتي أسفرت عن الوجه الحقيقي للغزْو الفكري ومقاصده الافسادية و التَّشكيكيَّة تجاه الإسلام وأهله.

ومن هنا يُمكن أن يُقال :إنَّ أهداف الغزو الفِكْري هي:

١- تشْويه عقائد المسلمين ودينهم، والتعرُّض بالسوء للوَحْيَيْن من خلال إثارة الشُّكوك والشبهات حول القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة، وشخصيَّة النَّبي ﷺ والصَّحابة - رضوان الله عليهم - وأمَّهات المؤمنين -رضي الله عنهنَّ -.

٢- التشكيك في المراجع الإسلاميَّة والمصادر التَّشريعيَّة؛ مثل :كتب السنَّة، وكتب الفقه، وكتُب العقائد، بالطَّعن فيها والطَّعن في أصحابِها.

٣- التعرُّض للتَّاريخ الإسلامي بالعَبَث، وبثّ الشّكوك والأكاذيب والتَّفسيرات الإسقاطيَّة، بأن يُفسّر التَّاريخ الإسلامي بحسب معتقد وخلفية المتعرِّض له بالشّرَح والتعليق؛ لخدمة الأغراض والسياسات والثقافات المناوئة للإسلام.

٤- النَّيل من التَّشريعات والحدود الإسلاميَّة بوسمها بالألْقاب التي تأنَف منه الأُذُن، وترْفضها القلوب والعقول، ما ينخدع به كثيرٌ ممَّن عميتْ أبصارُهم عن العدْل والرَّحمة في التَّشريع الإسلامي، فيسمّونها بمثل: الرجعيَّة، والوحشيَّة، وتجاهُل حقوق الأقلّيَّات.

٥- تمجيد القِيَم الغربية، وإنشاء أجيال من حاملي راية الاستِشْراق والعلمانيَّة، وترسيخ روح الذلَّة والتبعيَّة في نفوس المسلمين تجاه الغرب، في جولة من جولات الصراع بين الحق والباطل وبين الإسلام والكفر.

آليات الغزو الفكري:

المقْصود بآليات الغزْو الفكري :الأدوات التي توظف لتحقيق الاحتِلال الفكري، والمسالك التي يسلكها الغزو الفكري؛ للتمكُّن من السيطرة على العقول والقلوب، وتوجيهها إلى الوجهة التي تخدم الأغراض والأهداف الاحتِلالية الفكرية، والسياسيَّة، والاقتصادية، وغيرها في نوعٍ من حَمْل الأمم التي يُراد غزوها نحو طريق التلاشي، والذّوبان؛ إمَّا بالفناء الحقيقي، وإمَّا بالتبَعية الكلية الظاهرة والباطنة للغُزاة، بدفْع الهُوية والولاء والانتماء، لأجل التحول إلى صورة ممسوخة تابعة للغزاة وثقافتهم.

الأدوات والقنوات والمسالك الَّتي يجري من خلالها الغزو الفكري كثيرة منها:

١- التستُّر تحت دعاوى الإنسانيَّة، والمحبَّة، والإخاء، والتَّعاون، والمستقبل المشترك، والتقدُّم الحضاري، واللّحاق بركْب الرقيِّ العالمي، في نوعٍ من التضْليل، وقلْب الحقائق، وتشْويه المعارِف بالمخادعة والتزييف.

٢- توظيف وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، الرَّسمي والخاصّ، الديني والدنيوي، من خلال إيجاد تأْثير قنوات الثالوث الاحتلالي: العلمانية، والاستشراق، والتنصير.

٣- التَّعليم بجميع مراحله وأنواعه الثَّقافية والدينيَّة، من خلال فرض المناهج الَّتي تعمل على التنكر للحقائق الدينية، فضلاً عن تنحية الدِّين من المناهج الدراسية، وتهميش دراسته من خلال إخراجه عن مجموع الدَّرجات التي تؤثِّر في التقدير العامّ للطالب، وكذلك جعْل مدرِّسي الدِّين أضعف الطَّوائف في التكوين والتأهيل المهني وتقديم غيرهم عليهم.

بالإضافة إلى القضاء على اللغة العربية التي تربط الخالف بالسَّالف، وإحلال اللغات الأجنبيَّة محلَّها؛ ليكثرَ الاطِّلاع على العلوم الغربيَّة، والثَّقافات الَّتي تُعين على فصل المسلِمين عن الإسلام.

٤- إطلاق المصطلحات والأسماء الَّتي ينفر منه السَّمع، وتُحدث أثرًا سلبيًّا على نفسيَّة السَّامع، وإسْقاط هذه الإطلاقات على المجتمَعات الإسلاميَّة والحكومات والشّعوب؛ مثل :دول العالَم الثالث - الدّول النَّامية - الرَّجعيَّة والتَّأخّر - السَّير في مؤخِّرة الركب الحضاري والثَّقافي والاقتِصادي، وربْطها بالتديُّن والتمسُّك بالتعاليم الإسلامية.

ونحو هذه المسمَّيات الَّتي يكون لها الأثَر السَّلبي على المجتمع الإسلامي، وعرقلة تقدّمه، وتعميته عن رؤية أمجاده وقدراته الحقيقية، التي تستطيع نشر الخير وبثَّه في كل أرجاء البسيطة.

٥- الهيئات والمؤسَّسات الاجتماعية التي تتستَّر بالأعمال الخيرية؛ مثل :نوادي الليونز، والروتاري، اللَّذين ينتميان إلى الماسونيَّة العالمية، مما يكون له كبير الاتِّصال بالطبَقات الفقيرة والجاهلة من المجتمع الإسلامي.

٦- الدَّعوة إلى التحرُّر بمفهوم يشمل التحرُّر من التَّعاليم الدينيَّة، والثَّقافات الإسلاميَّة، والعادات والتَّقاليد الحسنة، وتسهيل مسالك الإباحيَّة، والفُجُور الفِكْري والثَّقافي والجنْسِي، تحت اسم الحريَّة، والمدَنيَّة، والإرادات الحرَّة، وتقْرير المصير، وغير ذلك من الدعاوى الخداعة.

٨- تنْحية الصالحين المخلصين عن مراكز التأثير في أغلب المجالات، وتقْليص دور المؤسَّسة الدينيَّة؛ حتَّى لا يكون لها دورٌ في صُنع القرار، ولا توجيه الناس.

٩- بث النعرات الطائفية والمذهبية والعنصرية من الحركات السياسيَّة، والأقلّيَّات، ودعمها سياسيًّا واقتصاديًّا، وتدْويل مشكلاتها -إن فُرض وجودها - من باب عمل نوع من الضَّغط الدولي والمحلّي لإحداث حالة من حالات عدم الاتّزان، وتشتيت الجهود، والذي يشكِّل بيئة خصبة لنمُوّ النشاط التخريبي للغزو الفكري.

فتأمل مدى خطورة وشراسة هذا الغزْو المتعدّد الألوان والألسن، ومدى مكر هذه الدَّعوة الهدَّامة التي تمتلئ تدميرا وإفسادا مما يتعين معه على المسلمين - أفرادًا وشعوبًا - حشْد الجهود والقوى والتعاضُد من أجل العمل في اتجاهَيْن:

الأول :التصدِّي لهذا الغزو، والحدّ من تفشِّيه وانتشاره.

الثاني :نشْر دعوة الإسلام، وبيان حقيقته التي يَجهلها كثيرٌ من المسلمين، من خلال أسْلَمة الأفراد والمؤسَّسات الرَّسمية والخاصَّة، وأسْلمة المناهج الدراسية، وأسْلمة الإعلام بشتَّى صورِه، والمبادرة والإسراع في القيام بالبيان والتَّوجيه الإسلامي.

فيجب بثُّ روح التغْيير إلى المنهج الإسلامي في القلوب والعقول؛ لأن التَّغيير يجب أن ينبعَ من إرادات الأفراد والجماعة المسلمة؛ ليكون التَّوفيق والتَّأييد والنَّصر حليفَ الصّدق والبذل.

أبيض

المحور الرابع
أصول في حماية فكر المسلم من الانحراف

يعيش المسلمون في زمن انفتحت فيه الدنيا على مصراعيها، وصرنا نعيش في عالم يجتمع في غرفة واحدة، فالقنوات الفضائية دخلت البيوت، والمواقع الإلكترونية استقطبتها أروقة الدور والعمل، فصار المرء يتلقَّى آراء عديدة، وتوجهات متغايرة، تجعله يتابعها وهو في غرفته ليل نهار.

وفي خِضَمِّ هذه التحديات والاختلافات؛ يجدر بالمسلم، أن تكون لديه رؤية ناضجة في مواجهة هذه التحديات، فإنَّ فيها الحق والباطل، والصواب والخطأ، ومن المهم أن يكون لدينا طرق واضحة للتعامل مع هذه التحديات والاختلافات، فمواجهتنا لهذه التحديات الثقافية تتطلَّبُ منَّا قوَّة عقدية، وركائز ثابتة، تأخذنا لبرِّ الأمان، وشاطئ النجاة.

ولا بدَّ لسائل أن يقول :وكيف نحصِّن أنفسنا وفكرنا من الداخل، خشية أن يضلَّنا ما هو زائغ عن المنهج القويم، وما الأسس والأصول التي تكوِّن لدينا حصانة شرعيَّة، نستطيع - بإذن الله -بعدها أن نردَّ الغلط إذا أوردت الشبهات، وخصوصاً في ظلِّ ما يمارس الآن من الحرب الإعلاميَّة الغازية للأفكار والعقول المسلمة؟

لعلَّ الجواب يكمن في عدَّة نقاط وحلول مساعدة - بإذنه تعالى - ببناء الحصانة الشرعية في العقليَّة الإسلامية، وسأذكرها في مطلبين خاصَّين ورئيسين، لتيسير المعلومة، وتقسيم كل شيء وما يخصُّه:

*** حلول عامة:**

الحلول المذكورة في ثنايا هذه السطور تعم جميع شرائح المجتمع، المثقف وغير المثقف، والعالم والأمي، وهي على النحو التالي :

١- التعلُّق باللهَّ - عزَّ وجل - والاستعانة والاستعاذة به، وسؤاله الهداية والثبات والممات على دين الإسلام من غير تبديل ولا تغيير، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة، فقد كان يسأل ربَّه الهداية، وكان كثيراً ما يسأله الثبات على هذا الدين، وعدم تقلُّب قلبه عن منهج الإسلام، ويستعيذ به من أن يضلَّ أو يُضلَّ، كما كان - عليه السلام - يستعيذ من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فالدعاء الملازم لذلك والانطراح على عتبة العبوديَّة، وملازمة القرع لأبواب السماء بـ) :ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنَّك أنت الوهاب (إذا اجتمعت هذه كلَّها، فلاشكَّ أنَّ رحمته سبحانه سابقة لغضبه وعقابه، ومحال أن يتعلق العبد بربِّه حقَّ التعلُّق، ويعرض عنه الله - سبحانه وبحمده - وهو الكريم الوهاب.

٢- الثِّقة واليقين بالله ووعده وحكمه وأوامره، والشعور بالمسؤوليَّة عن حفظ الدين من شبهات المغرضين، وعدم خلطه بالباطل، أو لبسه إياه، ومن ثمَّ الصبر على مكائد المنفِّذين والمسوِّغين للشُّبهات، فإنَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**﴾ (آل عمران: ١٢٠) وقد قال الإمام ابن تيميَّة - رحمه الله -: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين» وممَّا يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ (السجدة: ٢٤).

٣- تلقِّي العلم عن العلماء الربَّانيين، وإرجاع المسائل المشكلة إليهم ليحلُّوها ويوضِّحوا ما أبهم على صاحبها، فلا يستعجل في قبول فكرةٍ أطلقها من لا يؤمن فكره، ولا يبقي تلك الشُّبهة في صدره حتَّى تعظم، بل ينبغي عليه أن يوطن نفسه بالرجوع للراسخين من أهل العلم ؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣)

وذلك لأنَّ هذا العلم دين يدين به العبد لربِّه ويلقاه به إذا مات عليه، ولهذا قال الإمام محمد بن سيرين - رحمه الله - : «إنَّ هذا العلم دين؛ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم».

٤- البناء الذاتي عبر معرفة مصادر التَّلقي الخاصَّة بمنهج أهل السنَّة والجماعة، ومناهج الاستدلال الصحيحة، وملء القلب بنور الوحي من الكتاب والسنَّة، مع ملازمة إجماع أهل السنَّة والجماعة، فإنَّ هذه المصادر عاصمة من قاصمة الوقوع في الخطأ والانحراف والزلل، وسبب أكيد لسدِّ باب الشبهات المظلمات، وذلك - بعونه تعالى - مساعدٌ لحماية العقل المسلم من مضلاَّت الفتن.

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمرَّ السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمرَّ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿**وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ (النور: ٥٤).

ومن ذلك إرجاع المجمل إلى المبيَّن، والمطلق إلى المقيَّد، والمؤوَّل إلى الظاهر، والجمع بين الأدلَّة التي ظاهرها التعارض، بالرجوع لكتب أهل العلم، واستقاء معاني الألفاظ من العلماء الربَّانيين، وكذا يرد المتشابه إلى المحكم، وقد روت عائشة - رضي الله عنها - أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧) ثم قال ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله؛ فاحذروهم».

٥- التعلُّق بكتاب الله قراءة وفقهاً وتدبُّراً وعملاً، ولو أقبل الخلق على كتاب الله وانتهجوا بنهجه، لأجارهم - سبحانه - من الفتن، فالقرآن

شفاء لما في الصدور، ومن يعرض عنه فسيصيبه من العذاب بقدر ابتعاده عنه ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ (الجن). وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (طه: ١٢٣/ ١٢٤). ورضي الله عن ابن عبَّاس إذ قال: «من قرأ القرآن فاتَّبع ما فيه هداه الله من الضَّلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة الحساب» كما أنَّ هناك آثاراً كثيرة وردت عن السلف بأنَّه من ابتغى الهدى من غير كتاب الله، فإنَّ الله سيضلُّه، وقد جاء عن نبيِّنا محمد ﷺ أنَّه قال: «إنَّ هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به، فإنَّكم لن تضلُّوا ولن تهلكوا بعده أبداً» وأخبر ﷺ حين كان يخطب بصحابته الكرام في حجَّة الوداع قائلاً لهم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به .كتاب الله».

٦- إصلاح القلب ومجاهدته، ومن حاول ذلك وجدَّ واجتهد في تحصيله، فليبشر بالهداية واليقين، فاللهَّ تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وأمَّا من أعرض عن إصلاح القلوب وعن ذكر الله - تعالى - فسيجد نفسه في شقاق، ومع الآخرين في فراق، وصدق الله - عزَّ وجل - حيث قال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ (البقرة: ١٣٧).

٧- ملازمة الجلوس مع الصالحين، والمنتمين لمنهج أهل السنَّة، وتجنُّب مجالسة أهل الأهواء، وقد نهانا رسول الله ﷺ وخصوصاً في آخر الزمان عن الاستماع للضلاَّل، فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «سيكون في آخر أمتي ناس يحدِّثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا

آباؤكم، فإيَّاكم وإيَّاهم» ونهانا عليه الصلاة والسلام عن صحبة ضعاف الإيمان، وأمرنا بصحبة المؤمنين فقال: «لا تصاحب إلاَّ مؤمناً» فينبغي الحذر من الجلوس إلى أهل الزيغ والهوى والالتفات إليهم، وخاصَّة إن كانت الخلفيَّة لذاك الجالس مهلهلة في الجانب العقدي، وقد كان أهل السنَّة يوصون تلاميذهم بمجالسة الأخيار والصالحين، والإعراض عن أهل الزيغ والفسق والهوى، ورحم الله الشيخ أبا الحسن البربهاري حين قال: (وعليك بالآثار، وأهل الآثار، وإياهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس).

ويكفي أنَّ من فضائل ذلك أنَّ أصحاب الخير يدلُّون رفقاءهم على سبل الهدى، ولهذا فحين كان ابن القيم يورد على شيخ الإسلام ابن تيميَّة بعض كلام أهل الهوى إيراداً بعد إيراد، أوصاه ابن تيميَّة قائلا: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجَة، فيتشربها، فلا ينضحَ إلاَّ بها، ولكن اجعله كالزجاجة المُصمَتَة تمُرُّ الشبهات بظاهرها، ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلاَّ فإذا أَشْرَبْت قلبك كلَّ شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات أو كما قال». ثمَّ قال ابن القيم: «فما أعلم أني انتفعت بوصيَّة في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك».

٨- دراسة تاريخ الأمم، والحوادث السابقة، فإنَّ بذلك تتكوَّن لدى المرء حصيلة معرفيَّة حسنة، وتتحقَّق من خلالها ثمرات عديدة منها: معرفة السنن الربَّانية، ومعرفة الحقائق الهامة في حياة البشريَّة، كما أنَّ دراسة التاريخ تعطي حصانة ضدَّ الخرافات والبدع والضلالات التي هي من أسباب الهزيمة والخذلان، والتاريخ كذلك يساعد على فهم الحاضر وتحليله، وكل هذا مفيد لتحصين المرء من شبهات أهل الزيغ والكيد المعاصر.

٩- اكتساب مهارات التفكير المتنوعة المنضبطة بالمنهج الإسلامي، والتي تعود الذهن على طريقة التحليل للعبارات والكلمات والمناهج، فتعطي للمرء دفعة حيويَّة واعتزازاً بمنهجه، وتجعل عقله وقلبه لا يعتمد في أخذه ونهله من شتَّى المعارف والعلوم إلاَّ على ضوء الدليل والحجَّة والبرهان، وليس لمجرد محاكاة الآخرين، أو تقليدهم، أو تسلط بعضهم على بعض؛ لكي يأخذوا بمنهجهم أو فكرهم دون بيِّنة، ولهذا فإنَّ الشخص المحصَّن يرفض ما يسمَّى بـ: (الدوجماتيَّة) أي: تسلُّط الأفكار والآراء غير الصحيحة.

*** حلول خاصة:**

فيما يلي ذكر الحلول التي تخص أهل العلم الفكر والقيادة والتربية، وهي على النحو الآتي:

١- تنقية الثقافات ممَّا يعتريها من خلل، أو تشويش، فزمننا زمن الانفجار المعرفي والذي جعل الكم الهائل من المعرفة والمعلومات متاحة لنا في كل وقت، ومن المؤكَّد أنَّها تحوي الغث والسمين، ووظيفة المسلم حيال ذلك أن ينقي المعلومات من مصدرها، ويقدمها بصورة جيدة سلسة خالية من العيوب والنقائص، وهذا ما نحتاجه في زمن الاتصال الفكري أن يكون هناك علاج للثقافة الوافدة إلينا وتمييز طيبها من خبيثها، فثقافة الأرض لكلِّ الأرض، ومن المهم الانفتاح عليها بشروط وضوابط، والدور المناط بأهل العلم والفكر المؤصَّلين والمتقدِّمين هو التنقية والتصفية لجميع الثقافات وإدخال الحسن منها إلى دائرة المحيط الإسلامي واستبعاد رديئها.

لقد كان يقول غاندي: «يجب عليَّ أن أفتح نوافذ بيتي؛ لكي تهبَّ عليها رياح كل الثقافات؛ بشرط ألاَّ تقتلعني من جذوري» فإذا كان هذا

قول لرجل كافر بالإسلام ويدين بالهندوسيَّة؛ ومع هذا فإنَّه محافظ على جذوره وثوابته التي يراها صحيحة، فما البال بالمسلم الذي يتلقَّى نور الوحي من كتاب الله وسنَّة رسوله ومصطفاه ﷺ إنَّ الجدير به المحافظة على هويَّته والبعد أيَّما بعد عن الانمحاق بالمشاريع التي تستلب فكره وثقافته، شعر أم لم يشعر!

يقول العلامة محمد الأمين الشنقيطي: «إنَّ الموقف من الحضارة الغربيَّة ينحصر في أربعة أقسام لا خامس لها:

الأول: ترك الحضارة نافعها وضارها.

الثاني: أخذها كلها ضارها ونافعها.

الثالث: أخذ ضارها دون نافعها.

الرابع: أخذ نافعها وترك ضارها.

فنجد الثلاثة الأولى باطلة بلا شك، وواحداً فيها صحيحاً بلا شك، وهو الأخير».

الباحث التربوي ماجد عرسان الكيلاني: «لا يُسمح للمسلمين بفتح الأبواب والنوافذ على مصاريعها لأي تيار غريب، وإنَّما الواجب أن يجري من خلال المختصين المسلمين الذين يتلقون الأفكار والعقائد والثقافات الوافدة من خارج ثم يدرسونها ويحللونها ويهضمونها ويسمحون لما يتلاءم مع روح الإسلام منها».

٢- معرفة مقاصد الشريعة، ومرامي الدين الإسلامي، لأنَّها تمنح المسلم قوَّة منهجيَّة كبيرة، ولقاحاً ضدَّ الانحرافات، ومعرفة المقاصد تعطي المسلم مناعة كافية، وخاصَّة في وقتنا الحاضر ضدَّ الغزو الفكري والعقدي، والتيارات المستوردة، والمبادئ البرَّاقة والدعوات الهدَّامة، التي يستتر أصحابها وراء دعايات كاذبة، وشعارات خادعة، ويبذلون جهدهم لإخفاء محاسن الشريعة وتشويه معالمها، والافتراء عليها، وإلصاق الشبه

والأضاليل بها والتمويه على السذج والبسطاء وأنصاف المتعلِّمين بالطلاء الخادع والمكر المكشوف.

٣- تكثيف البرامج التوجيهيَّة، وأخصُّ بالذكر وسائل الإعلام بشتَّى أصنافها، ومحاولة زرع الثقة في قلوب المسلمين بالاعتزاز بدينهم وعقيدتهم، وتمكين قواعد الإسلام في قلوبهم، والرد على ما يضادها، وحتماً سيولِّد ذلك قناعة بأولويَّة الأصول الإسلاميَّة في قلوب المسلمين، وبناء الرسوخ العقدي في قلوبهم، وذاك التحصين الذي نريد .

٤- إنشاء مراكز الأبحاث والدراسات المعنيَّة برصد الانحرافات الفكريَّة، والتعقيب عليها بتفنيد الشُّبه، والجواب عن الشكوك والإثارات التي تخرج من بعض المارقين من قيم الإسلام ومبادئه، والجهاد الفكري ضدَّها، من منطلق قوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ (الفرقان: ٥٢) فنحن بحاجة إلى تفعيل هذه المراكز بقوَّة البحوث، وضخِّ المال الداعم لها، وتوظيف الباحثين المتمكِّنين فيها، وإعطائها قدراً من الشهرة والانفتاح على الوسائل الإعلاميَّة.

٥- توظيف في وسائل الإعلام بشتَّى صورها وألوانها، من قِبَلِ العلماء والمفكرين المنتمين لمنهج أهل السنَّة والجماعة، وعرض منهجهم تجاه المناهج الأخرى، وبخاصَّة من الأقوياء المتمكِّنين منهم، وإنَّ ممَّا يؤسف له، يوجد بعض وسائل الإعلام، تستضيف رجلاً بأفكار منحرفة، وتقابله بآخر من المنتسبين لمنهج أهل السنَّة لا يكون في مستواه في التقديم الفكري، ممَّا يؤثر سلباً تجاه المتلقي لتلك المحطَّات الإعلاميَّة لحديث هذا الرجل السُّنِّي، كما أنَّ من اللازم لأهل العلم أن لا ينأوا بأنفسهم عن تلك المواجهات الفكريَّة والثقافيَّة مع مناقشة المخالفين، بل يغلِّبون جانب المصلحة العظمى والكبرى في نصرة أهل السنَّة وقضاياهم على عدم الخروج في تلك الوسائل بسبب بعض السلبيات أو

المفاسد الصغرى، مع الحذر من سوء التفسير والتوظيف لما يسمى تطوير الخطاب الديني حتى لا يتحول المقصود إلى تحريف المفاهيم لدى المسلمين، وتحريف المفاهيم أشدُّ خطراً من الهزيمة العسكرية، ومن هنا كانت مخطَّطات أعداء الإسلام «لأنَّ هزيمة الأمَّة في أفكارها تجرِّدها من الحصانة وتتركها فريسة لأي مرض أو وباء فيسهل بعد ذلك احتواؤها وتفكيك معتقديها».

٦- الدراسة الواعية والناقدة للأفكار والملل والنحل المغايرة لمنهج أهل السنَّة، وتمكين هؤلاء الدارسين من أدوات الفهم والنظر والمعرفة لرصد الانحرافات الفكرية، ومعالجتها على ضوء الشريعة، وممَّا يبيِّن أهميَّة ذلك أنَّه تعالى فصَّل لنا وسائل المجرمين وأساليبهم وحججهم، وردَّ عليها داحضاً لها، فمعرفة وفقه المداخل التي يدخل بها أهل الزيغ والهوى لإقناع من يريدون ضمَّه إليهم، أصلٌ نبَّه عليه تعالى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٥)، ولهذا يقول حذيفة بن اليمان: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني» فمعرفة الشرِّ وأهله منهج أساس لأهل السنة والجماعة وكشف خُدَعه.

٧- إذا شعر المرء أو غلب على ظنِّه بأنَّه قد يفتن في دينه؛ فلا ينبغي له قراءة كتب أهل الهوى والزيغ، ولو قصد بذلك الردَّ عليهم، ومناقشة شبههم، لأنَّ درء المفاسد والانحرافات مقدَّم على جلب المصالح في الذبِّ عن هذا الدين، بل ينأى المسلم بنفسه عن الشبهات، ولا يجعلها متهافتة على قبولها، ويجعل نفسه مطمئنَّة إلى الاستيقان بعظمة هذا الدِّين، وثبات أصوله، فيخلي قلبه ونفسه من متابعة الشبهات، ولا يجعلها لاقطة لأي تشكيك في دين الإسلام، وقد قيل: من اتَّقى الشبهات سلم قلبه من الشتات، ومن تأمَّل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾

(الصف: ٥) وقوله: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ (الحديد: ١٤) علم أنَّ بعض النفوس تتطاير على منافذ الشبهات والضلالات - عياذاً باللهَّ - وحين بلغ عمر بن الخطَّاب - ﷺ -«أنَّ رجلاً يقال له :صبيغ بن عسْل قدم المدينة وكان يسأل عن متشابه القرآن، بعث إليه عمر بن الخطَّاب - ﷺ - وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه وجلس قال :من أنت؟ قال :أنا عبد الله صبيغ .قال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأومأ عليه، فجعل يضربه بتلك العراجين؛ فما زال يضربه حتى شجه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، قال :حسبُك يا أمير المؤمنين !فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي».

٨- التربية للنشء بما يرضي الله، والتحاور معه بتبيين فساد شبهات أهل الزيغ والهوى، مع قوَّة الإقناع، وأدب الحوار، فالتنشئة الصحيحة على التحصين العقدي من أهم المهمات بل هي أهمها وذلك ؛ بتربيتهم على العقيدة الصحيحة، وحمايتهم من العبث الفكري، وبناء الشخصية الإسلاميَّة التي لا تؤثِّر فيها تيَّارات التشكيك، وإرسالهم إلى المربِّين الثقات لتربيتهم على أصول ديننا، وإنَّ من مهام التربيَّة الجادَّة عدم تسليم الأبناء إلى الأماكن الموبوءة بالشبهات، فإنَّ ذلك خيانة وغش للرعيَّة، وفي الحديث الذي رواه معقل بن يسار المزني - ﷺ - في مرضه الذي مات فيه: قال سمعت رسول ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعيَّة يموت يوم يموت وهو غاش لرعيَّته إلاَّ حرَّم الله عليه الجنَّة (أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له، وأحد لفظي البخاري): ما من مسلم يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة».

مقومات بناء الأمن الفكري:

مما سبق ومن النظر في النصوص الشرعية وواقع الناس والمتغيرات والأحداث والعلاقة بين المواطن والدولة والعلاقة بين الراعي والرعية

وحقوق ولاة الأمر والمجتمع يمكن أن تتجسد مقومات بناء الأمن الفكري من خلال الأمور التالية:

١- غرس العقيدة الصحيحة ولزوم منهج الكتاب والسنة والاطمئنان إلى تحقيق الوسطية والاعتدال وتحققهما فكرا وممارسة والبعد عن الإفراط والتفريط على مستوى الأفراد وشرائح المجتمع ومؤسساته وإلزام الجميع بالتزام ذلك في المجال الديني والتربوي والتعليمي والثقافي والإعلامي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها. وإيجاد الآليات المناسبة للرقابة على هذا الالتزام وتقويم الخلل وتسديد النقص إذا وجد.

٢- محاربة المحاولات التي ترمي إلى المساس بثوابت الدين وأحكام الشرع وتهديد الوحدة الوطنية ومن ذلك تصنيف الناس والمجتمع إلى فئات وإظهارها وكأنها متصارعة متنازعة.

٣- إصلاح الخطاب بكل أنواعه الديني والثقافي والسياسي وغيرها مما قد يغذي الجذور الفكرية للإرهاب والشذوذ وتطوير المؤسسات العلمية المعنية لتأهيل المزيد من العلماء والدعاة والأئمة والخطباء والمفكرين والمثقفين أهل المنهج الوسط الذين يرسخون وسطية الإسلام والوحدة الوطنية.

٤- تطوير أنظمة التعليم بجميع مدخلاته البشرية والفكرية والمادية والعمل على تحسين مخرجاته من الاهتمام بحسن اختيار العاملين وتأهليهم وتوظيف المعطيات التربوية والتعليمية والفكرية والثقافية في جميع مراحل التنشئة الاجتماعية ومؤسساتها وقاية وعلاجاً وربط مناهج التعليم بواقع الحياة ومشكلات المجتمع الفكرية والاجتماعية بما يحقق التوازن بين النظرية والتطبيق واحتياجات الفرد والمجتمع .

٥- التعامل بحزم مع دعاة الانحراف الفكري من خلال التجريم والضبط والعقاب وتكثيف الجهود في المتابعة وجمع المعلومات وإجهاض

أي محاولة للنيل من ثوابت الشرع والوحدة الوطنية أو تهديد الأمن والاستقرار.

٦- إشاعة ثقافة الحوار وتقبل الرأي الآخر في حدود المقبول والمضبوط شرعا داخل المجتمع بمؤسساته الرسمية وغير الرسمية.

٧- الاهتمام بتحقيق الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي للأسرة وتفعيل دورها في التربية الصالحة لأولادها بنين وبنات.

٨- غرس قيم العمل والإنتاج في المجتمع من خلال الأسرة والمدرسة والمسجد والإعلام وغيرها من المؤسسات المؤثرة.

٩- المزيد من العناية والاهتمام بالإصلاح السياسي والاقتصادي والإداري والاجتماعي على كل المستويات وأهمية الإيمان بجدواه والتعاون والتنسيق التام لنجاحه وتحقيق تطلعات المجتمع المشروعة.

١٠- التوجه الجاد بحكمة وسداد نحو توحيد المرجعية في القضايا الكبرى والعامة ورد المتنازع فيه إلى الثوابت من الدين ويقود ذلك إلى ترشيد الفتوى وضبطها ومعالجة سوء الفهم والاستنباط عند أصحاب الآراء والفتاوى الشاذة .

١١- تكثيف برامج التصحيح الفكري باستخدام مختلف وسائل الاتصال الجماهيري وبخاصة شبكة المعلومات العنكبوتية.

١٢- مواكبة المستجدات والحوادث لبيان موقف الإسلام والبلاد منها مما يهم المجتمع وفق آلية مناسبة ذات مرونة وسعة وفهم ومواكبة للتطورات وبخاصة لبلادنا موقعها ودورها المؤثر فبلادنا هي قبلة المسلمين بكل المعاني وتجاه مختلف المستجدات من القضايا.

١٣- التوسع المنضبط في إيجاد مؤسسات المجتمع المدني وتفعيلها من أجل إسهامها في معالجة قضايا المجتمع وحل مشكلاته مما يوسع دائرة الحوار وتبادل الرؤى والأفكار وتوسيع المشاركة في اتخاذ القرار.

١٤- تحسين مستوى الخدمات التي تقدم للمواطنين في كل أرجاء الوطن مدنا وقرى وأريافا لتحقيق التنمية للجميع .

١٥- النظر في رسالة الإعلام لتكون أكثر فاعلية ووضع معايير محددة لحفظ الناشئة بخاصة والمجتمع بعامة من الانحراف الفكري بنوعيه الإفراط والتفريط (الغلو والجفاء) وتبني برامج إعلامية شاملة وفق خطط طويلة تهدف إلى ترسيخ التمسك بالدين وتنمية الوعي الوطني وحب الوطن والانتماء اليه وحفظ حقوق ولاة الأمر والسمع والطاعة والحفاظ على الوحدة الوطنية والتصدي لما يطرح من مخالفات وأفكار مغرضه.

١٦- إقامة الفعاليات الشبابية المناسبة بأسلوب جذاب ينمي الرغبة في خدمة الوطن وتحمل المسؤولية وتقديم الحوافز الباعثة على التنافس والإبداع .

١٧- الاعتماد على البحث العلمي ونتائج الدراسات العلمية الجادة المستوفية لأسس البحث في معالجة مختلف الظواهر بل في كل المطلوبات الوطنية علما وتربية ومجتمعا واقتصادا وفكرا وغيرها.

واجراء الدراسات الميدانية المتعمقة لقياس الرأي العام وما يطرأ عليه من تغيرات نظرا للظروف الداخلية والخارجية وطبيعة الحياة البشرية والمجتمعية وتوظيف نتائج تلك الدراسات في مجال التخطيط بصوره المختلفه.

ويدخل في ذلك بشكل أولي وأساس دراسة مسببات الانحراف الفكري والتطرف والغلو والجفاء لدى كل نسق من أنساق المجتمع وبخاصة الشباب.

وفي الختام...

وما أجمل ما قاله أيوب السختياني - رحمه الله-: «إنَّ من سعادة الحدث والأعجمي، أن يوفِّقهما الله لعالم من أهل السنَّة» ليكون أهل

التربية معينين لهم على تقوية عقيدتهم، ودرء عبث غزاة الأفكار والعقول عنها، مع التحذير الملازم لهم بخطر الأخذ عن غير أهل السنَّة، وإن استطعنا منعهم من ذلك فهو الأحسن، إلاَّ أنَّ المنع لابد أن يكون بإقناع لهم، وقد يكون منعهم متعذراً في هذا الزَّمن، لأنَّهم قد يمنعون فتأتيهم ردَّة فعل تجعلهم يصرُّون على ما سيطالعونه أو يسمعونه، ولكن الأسلوب التربوي يرجِّح أن يناقش الأب أو المربِّي ذلك الشاب ويبيِّن له أوجه الخطأ التي وقع بها أهل الضلال، فلا منع مطلق، ولا إباحة مطلقة، بل إكسابهم مناعة فكرية وفق ضوابط وتحذير ودعم تربوي.

وقد يقول قائل: إنَّ منهج جمع من السلف الصالح منع الناس من سماع البدع والشبهات ؛ وحقَّاً فإنَّ ذلك الأفضل ولا شك، ولكنَّ السلف الصالح في ذاك الزمن كانت قاعدته هي الإسلام وقيمه ومبادئه، وكان الأمر إليهم وبيدهم، وأمَّا الآن ليس لنا من قوَّة الإسلام ما كان، فإنَّ النَّاس في هذا الزمن للفتنة أقرب منهم للإسلام، وتربيتهم الآن تكون بقوَّة الكلمة الحقَّة التي تصنع المنهج، وتقنع المخاطب...

إنَّها حكمة في الأمور وتربية تستدعي التَّأمل والنظر في المآلات) ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور (فمن الضروري أن نبني جيلاً محصَّناً - بإذن الله - من لقاحات الشبهات، وطُعمِ الشكوك، ليكونوا على قوَّة في دينهم تجاه الهجمات الشرسة التي يواجهها أهلَ الإسلام من أعدائه.

المحور الخامس
أصل أسباب الانحراف الفكري قلة الفقه

الإسلام مبناه على الوحي؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ**﴾ (الأنبياء: ٤٥)، وقال تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ (النساء: ١١٣).

وفرض الله على الناس اتباع سنة رسوله ﷺ؛ فقد دل القرآن على أن من أطاع الرسول ﷺ، فهو مطيع لله؛ كما قال تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ (النساء: ٨٠) وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ آل عمران: ٣١) فإقامة الدين على الوجه المطلوب شرعا لا تحصل إلا بالعلم بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ. قال أبو حمزة البزاز: «من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلا متابعة الرسول في أقواله، وأفعاله، وأحواله» ولذلك أمر المولى تبارك وتعالى بطلب العلم؛ فقال: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ (محمد: ١٩) وندب المؤمنين إلى التفقه في الدين؛ فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٢). وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وقال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين.

وللعلم بالكتاب والسنة طرق، وآلات، من يسرها الله له، وأراد به خيرا فَقُه في دين الله، ومن تنكب تلك الطرق، وحرم آلات العلم، لم يعرف دينه ؛ ومن لم يعرف دينه، لا يكون فقيها، ولا طالب فقه .

فمن طرق اكتساب العلم، التعلم؛ كما قال تعالى: **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** (التوبة: ١٢٢). وقال ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه». فالعلم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ سبيله بذل الجهد في طلبه،والأخذ من أفواه العلماء الربانيين؛ المشهورين بالديانة، المعروفين بالستر والصيانة ؛ الذين قد ارتقت في العلم درجتهم، وعلت فيه منزلتهم . ولا يكون العالم ربانيا إلا إذا عمل بعلمه ؛ قال ابن الأعرابي: «إذا كان الرجل عالما، عاملا، معلما، قيل له رباني، فإن حرم خصلة منها، لم يقل له رباني» وكذلك يؤخذ العلم عن الأكابر؛ فقد قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا» ولا يؤخذ عن مبتدع، ولا كذاب، ولا سفيه؛ كما قال الإمام مالك: «لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به».

ومن آلات العلم، الذكاء، وسرعة الفهم؛ فإن الإنسان إذا رزقه الله تعالى الذكاء، سهل عليه طلب العلم، وعقل مسائله؛ وإذا لم يكن كذلك لا يستطيع أن يحقق بغيته. قال ابن المعتز: «كما لا ينبت المطرُ الكثيرُ الصخرَ، كذلك لا ينفع البليد كثرة التعليم» وبهذا نعلم أن قلة الفقه في الدين تحصل بسبب نقص الآلة،وعدم التفقه في نصوص الوحي، وسنة الرسول ﷺ بالطرق المعتبرة. فالإنسان إذا طلب العلم ممن لم ترسخ في العلم قدمه، أو كان صاحب هوى وبدعة، أو استقل بنفسه في الطلب، واكتفى بمطالعة الكتب، كان حريا ألا يصل إلى مرتبة الفقه في دين الله روى الخطيب البغدادي عن سليمان بن موسى قال: «لا تقرؤا القرآن على

المُصَحِّفين، ولا تأخذوا العلم من الصَّحفيين» وروي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سألت أبي عن الرجل تكون عنده الكتب المصنفة، فيها قول رسول ﷺ، واختلاف الصحابة والتابعين، وليس للرجل بصر بالحديث الضعيف المتروك، وبالإسناد القوي من الضعيف، فيجوز له أن يعمل بما شاء، ويتخير ما أحب منها ؛ يفتي به ويعمل به ؟ قال: لا يعمل حتى يسأل ما يؤخذ به منها، فيكون يعمل على أمر صحيح، يسأل عن ذلك أهل العلم».

إن الإسلام دين يدان به لله عز وجل، وهذا الدين لا يتم إلا بعلم مستقى من مشكاة النبوة ؛ ولذلك فإن من الواجب على الإنسان أن يجتهد في اختيار من يأخذ عنه العلم ؛ كما قال الإمام مالك: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم».

بعض الآثار المترتبة على قلة الفقه في الدين:

١ - ترؤس الجهّال:

إن من أعظم ما تبتلى به الأمة، ويفرق كلمتها، ويشتت صفها أن يتصدى لإرشاد الناس، ودعوتهم، وتعليمهم أمور دينهم من لم يكن من الراسخين في العلم، أو كان صاحب هوى وبدعة ؛ لأن مثل هذا يفسد أكثر مما يصلح .أخرج البخاري عن عبدِ الله بنِ عمرو بن العاص قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزِاعاً يَنتزِعُهُ من العِبادِ، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبض العُلماءِ، حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذَ الناسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فسُئلوا فأفْتَوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضَلُّوا».

٢ - عدم معرفة مقاصد الشرع:

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا عندما قال له الرجل: اتق الله يا محمد! فقال ﷺ «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا - أَوْ فِي عَقِبِ هَذَا - قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ» فهم أخذوا أنفسهم بقراءة القرآن، ولم يتفقهوا فيه،

ولم يعرفوا مقاصده . إن الله سبحانه وتعالى أنزل كتابه بلسان عربي مبين، وبينه الرسول ﷺ كذلك، ولذلك فإن طلب فهم القرآن إنما يكون من هذا الطريق، فإنه لا يعلم من إيضاح جُمَلِ عِلمِ الكتاب أحدٌ جهل لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها . ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانه .

وإذا كان الأمر كذلك، فيجب على من يتكلم في القرآن والسنة أن يكون له بصر بلسان العرب، ومعرفة بأساليبهم، وطرائق كلامهم . قال الشاطبي «فإذا كان الأمر على هذا لزم كل من أراد أن ينظر في الكتاب والسنة أن يتعلم الكلام الذي أديت به، وأن لا يحسن ظنه بنفسه قبل الشهادة له من أهل العربية بأنه يستحق النظر، وأن لا يستقل بنفسه في المسائل المشكلة التي لم يحط بها علمه دون أن يسأل عنها من هو من أهلها .فإن ثبت على هذه الوصاة، كان - إن شاء الله - موافقا لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام».

إنَّ تكلُّم من لا يعرف لسان العرب في أمور الشرع، واستنباطه الأحكام دون أن يتمكن من آلة فهم الكتاب والسنة يؤدي إلى تحريف الكلم عن مواضعه، والقول على الله بغير علم .

٣- اتباع المتشابه من نصوص الكتاب والسنة وترك المحكم:

قاعدة الشريعة، وطريقة الراسخين في العلم الإيمان بالكتاب كله محكمه ومتشابهه ؛ كما قال الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (آل عمران: ٧). أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: «لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر

النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً، قد احمرّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول :مهلاً يا قوم !بهذا أهلكت الأمم من قبلكم؛ باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً،بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه».

فقد دلت هذه النصوص على أن في كتاب الله من لا يفهمه إلا من رزقه الله الفهم والبصيرة ؛ فإن التشابه الذي لا تمييز معه، قد يكون من الأمور النسبية الإضافية ؛ بحيث يشتبه على بعض الناس دون بعض . ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه، فليس لكل أحد أن يقول فيه برأيه بل يكله إلى عالمه . قال الربيع بن خثيم: يا عبد الله! ما علمك الله في كتابه من علم، فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علم، فكله إلى عالمه، ولا تتكلف؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)**﴾ (ص).

إن ضلال كثير من أصحاب الغلو، وانحرافهم كان بسبب ردهم للمحكمات من النصوص، وأخذهم بالمتشابهات . قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: إنه سيأتي أناس يأخذونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن؛ فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله وبين الشاطبي ذلك بقوله: ومما يوضح ذلك ما خرجه ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا: كيف رأي ابن عمر - رضي الله عنه - في الحرورية ؟ قال: يراهم شرار خلق الله إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت في الكفار، فجعلوها في المؤمنين . فسرّ سعيد بن جبير من

ذلك، فقال: مما يتبع الحرورية من المتشابه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤) ويقرنون معها ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١) فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق، قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه، (ومن عدل بربه) فقد أشرك، فهذه الأمة مشركون، فيخرجون فيقتلون ما رأيت ؛ لأنهم يتأولون هذه الآية .

٤- الأخذ ببعض الأدلة وترك ما سواها:

إن طريق الأئمة الراسخين في العلم النظر في جملة أدلة الشريعة، ومن ثم استخراج الحكم ؛ لأن أدلة الشرع كلية وجزئية،وعام وخاص، ومطلق ومقيد، فاستخراج حكم قضية من القضايا يحتاج إلى النظر في الأدلة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر ببينها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها؛ لأن أخذ الحكم من دليلٍ دون نظرٍ إلى ما يعارضه، أو يقيده، أو يخصصه،أو تطبيق الحكم دونَ النظر في تحقق المناط، يؤدي إلى نتائج خاطئة، وأحكام غير صحيحة، وضرب للأدلة ببعضها .

لقد كانت نتيجة مثل هذا النظر في الأدلة مؤلمة وقاسية على الأمة الإسلامية على امتداد تاريخها، فقد أُخرِج أقوام من دين الله، وسُفكت دماء، واستحلت أموال، وانتهكت أعراض، وخُربت أوطان، وتسلط ظلوم غشوم طاغ على بلاد المسلمين، وأحال أمنهم خوفا، وعزهم ذلا، وغناهم فقرا .

٥- عدم النظر إلى مآلات الأفعال:

قاعدة الشريعة التي لا تنخرم، تحقيق المصالح ودرء المفاسد؛ ولذلك كان النظر إلى ما يؤول إليه الفعل، وهل يحقق مصلحة، أو يدرأ مفسدة ؟ من الفقه في دين الله .

والأصل في ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (الأنعام: ١٠٨)، فمنع الله تعالى في كتابه أحدا أن يفعل فعلا جائزا يؤدي إلى محظور .

يقول الشاطبي - رحمه الله -: (النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا؛ كانت الأفعال موافقة، أو مخالفة .وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام، إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل؛ (فقد يكون) مشروعا لمصلحة فيه تستجلب،أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه . وقد يكون غير مشروع؛ لمفسدة تنشأ عنه، أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك . فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية،فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة، أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية . وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية، ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوي، أو تزيد، فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية. وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جار على مقاصد الشريعة.

وعملا بهذا الأصل لم يقتل الرسول ﷺ عَبْد اللهَّ بْنُ أُبَيٍّ حينما قال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، وعلل ذلك بقوله : «لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » ولم يهدم البيت ثم يعيده على بناء إبراهيم ﷺ، وقال لعَائِشَةَ رضي الله عنها: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ فِي الأَرْضِ، وحرُم تغيير المنكر إذا كان يستلزم ما هو أعظم منه

شرا . ولـو تأمـل المنصـف في كثـير مـن الأحـداث التـي عصـفت بالأمـة الإسـلامية ؛ في المـاضي، والحـاضر، لوجـد أن سـببها يرجـع في الغالـب إلى إهمال هذا الأصل .

إن إهمال النظر إلى مـا يـؤول إليـه الفعـل، يفسـر لنـا مـا نـراه مـن بعـض النـاس مـن حمـاس زائـد،وانـدفاع متهـور، وعواطـف ملتهبـة، عنـد وقـوع بعـض الأحـداث التـي تعصـف بالأمـة ؛فـترى أولئـك يفقـدون الحكمـة، ويسـارعون في رد الفعـل دون تروٍّ،ويتسـابقون في اقتحـام الميـادين الصـعبة، والمسالك الـوعرة، دون تثبـت، ولا مشـاورة كبـير أو صـغير. وبعـد أن تـنجلي الأحـداث، وتهـدأ العاصـفة يتبـين لأولئـك الغيـارى! أن عاقبـة سـعيهم لم تكـن محمـودة، وأن ثمـرة جهـدهم لم تكـن بقـدر مـا بـذلوه مـن جهـد، وأن الأمر لم يكن بمثل مـا تصـوروه، وأن العاقبـة كانـت أشـد وقعـا، وأعمـق أثـرا، وأكثرا ضررا.

خاتمة وخلاصة

ومن أبرز علامات ضعف الأمم أخذها بكل ما يساق إليها من غير تمييز بين ما يضر وما ينفع لا تفرق بين ما يوافق ومالا يوافق حتى ينتهي بها الحال الى أن تفقد خصائصها وتذوب أصالتها.

ومن علامات الضعف البارزة كذلك أن يكون ميلها إلى نقل التافه الحقير مما يغرق في الشهوات ويقود إلى الراحة والاسترخاء ليس عند أصحابها من الهمة والعزة ما يرتفعون به إلى معالي الأمور وحياة الكفاح والجهاد واحتمال المكاره والعمل الجاد الدؤوب إن لدى الأعداء بضاعتين: بضاعة يزجونها إلى الضعاف وبضاعة يمنعونها عنهم . أما التي يزجونها فكل ما يسلب الاخلاق ويدمر القيم ويذل الأمة ويكرس العبودية وأما التي يمنعونها فسر التفوق وإكسير القوة والنافع المفيد.

هذا هو حال الضعف والضعفاء ولو ستروا أنفسهم بقشور رقيقة من علم أو ثقافة .

لقد ظنت بعض هذه الدويلات الضعيفة أنها نالت استقلالها وحريتها وعدت نفسها في عداد أهل العلم والمتعلمين والحضارة والمتحضرين بينما أبناؤها عبيد أرقاء في أفكارهم شاءوا أم أبوا .

تشهد على ذلك مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعهم ومحاكمهم بل تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أنهم لم ينالوا من الحضارة الملحدة سوى قشورها.

لا يفكرون إلا بعقول الاعداء ولا يبصرون إلا بأعينهم رسخ في نفوسهم شعروا أو لم يشعروا أن الحق ما جاء من عندهم والباطل ما لم يكن عندهم مقاييس الحق والصدق والأدب ما قررته نظرياتهم ومناهجهم.

والوطنية عند هؤلاء المنكوبين أن يعرضوا ما عندهم من أفكار وتصورات على تصورات الملاحدة في الشرق وفي الغرب فما وافق ما عندهم اطمأنوا إليه وفرحوا به وفاخروا به فهو المساير لمقتضيات العصر وما خالف ذلك فهو باطل وتخلف ورجعية وأفكار قديمة بالية.

ثم يقوم هزيل من هؤلاء فيتبرأ مما عند قومه من الحق ويرفضه سراً وعلنا ويأتي متخذلق آخر في خشوع وذلة ليوافق بيد مرتعشة بين ما عنده وما عند كفار المشرق والمغرب فيحدد ويرفع لينطبق على معاييرهم تبعية ذليلة تمسخ فيها عقول الأمة وتشوه أفكارها من خلال التربية والتعليم والإعلام تبعية وتجهل فيها الأمة تاريخها وتعظم تاريخ الغزاة ينشأ الجيل المقهور وليس في علمه ولا ثقافته إلا تاريخ الدولة الغالبة لا يعجبه إلا فكرُها ولا يكبر عنده إلا رجالها.

ذلة تزاحم فيها الغالب لغة القلوب وتزخرها أو تطردها لتحل محلها فيلوي مدعو الحرية ألسنتهم بالرطانة وذلك عندهم رمز التقدمية وليعلم هؤلاء المخذولون أن ضعف لغة الأمة برهان على ضعف فكرها.

في الغزو الفكري تستبدل الأمة أخلاق الكافرين بأخلاقها المستقيمة فيقوم دعاة من القوم يدعون إلى الميوعة والسفور وهدم الأخلاق.

سبحان الله أي مسخ وأي ذلة أشد وأنكى من أن تستورد الأمة أخلاقا ذميمة من الخارج وقيما هابطة من المغضوب عليهم وهل يوجد تنكر للأصالة أعظم من هذ التنكر ؟.

يقول بعض زعماء اليهود: (لقد نشرنا روح التحرر الكاذب بين الشعوب الغيورة لإقناعهم بالتخلي عن دينهم بل استطعنا تثبيت الشعور بالخجل من الإعلان عن تعاليم الدين وأوامره ونواهية ومزاياه . والأدهى من ذلك أننا نجحنا في إقناع كثيرين بالإعلان جهاراً عن إلحادهم وكفرهم بالله.. نعم لقد شمل هجومهم العقائد والسياسة

والحكم والاقتصاد والتعليم والإعلام واللغة والتقاليد الصحيحة والأزياء المحتشمة لقد شمل العقل والنقل والدين والدنيا سدودا الطغاة ووجهوا السهام وبرروا المؤامرات. تعددت مجالات الغزو وتنوعت أساليبه هجوم من الخارج تارة ومن الداخل تارة من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

وعلى قدر شرف رسالتنا تكون شراسة الهجوم علينا لو كان ديننا دين خمول أو بلادة عقل لما اكترثوا ولما اهتموا فما رأيناهم هاجموا وثنية ولا قاوموا بوذية وإن في أفئدة القوم غلاً راسيا منذ مئات السنين.

إنهم ما سكتوا ولن يسكتوا وكيف يكون ذلك وقد علموا أن الاسلام عصي عليهم في مبادئه مقاوم لكل أنواع الذلة والاستعباد .

هذا واقع كثير من بلاد الإسلام وحال كثير من مثقفي الأمة وتلك هي مواقف الأعداء.

ولكن المؤمن موفق بإذن الله حافظ دينه معلي كلمته ولن يزال في الأمة موفقون يهدون بالحق وبه يعدلون ولا تزال في أمة محمد ﷺ طائفة على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى .. والمحجة بيضاء والطريق بين والحق أبلج وما على أهل الحق من المسؤولين والعلماء والدعاء إلا أن يصدقوا في النوايا ويشمروا في العمل فرجل الأصالة وصاحب الاستقلال المحمود هو المسلم المتمسك بدينه الواثق به المعتز بتعاليمه.

ومن أجل عودة صادقة واستعادة لمواقع الصدارة ومقود القيادة لابد من تضافر الجهود في تربية الأجيال على الاعتزاز المطلق بدينها واستشعار عظمته لابد أن يصحب برامج التعليم والإعلام برامج تربوية إسلامية صحيحة نقية تشرف على سلوك الأفراد والجماعات وتجعل الحياة الخاصة والعامة محكومة بحكم الإسلام مضبوطة بآدابه وتوجيهاته والتخلص من سخافة الأفكار وزبالة أذهان .

ولابد من أن يستقر في النفوس في يقين جازم بأن شريعة الإسلام هي دين الأمة ودستورها في الصغير والكبير وهي كلمة ربها وهدي كتابها المتعبد بتلاوته بكرة وعشيا وهي قانونها العام والخاص في النقير والقطمير.

من المعيب والمشين أن تعيش وسائل إعلام الأمة في كثير من مواقعها تبعية قاتلة لا يرجى فيها تحصين فكر ولا حفظ دين.

ويعمم لنموذج الأعداء في الثقافة والسلوك لقد طفحت كثير من هذه الوسائل بنشر الفلسفات التي تعزز المادية وتضعف الجوانب الإيمانية.

بل ويقال وبكل صراحة ووضوح لقد بدأت وجهة الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في كثير من البلاد والشعوب تتخذ مسارا متغيرا إنه استعمار له تلامذته من ضحايا الغزو الفكري والاختراق الأمني العقائدي وسائل توجهها وكأنها متكفلة وملتزمة بإيجاد أجيال مبتوتة الصلة بدينها وأمتها مستنقصه لتراثها وحضارتها ملتصقة بالعدو الكافر الذي لا يرضى ولن يرضى إلا أن تكون الأجيال أداة لتنفيذ كل المآرب.

لم تكن موادهم سوى نقول ومترجمات وتقليد ومحاكاة إنها ليست سوى أفلام وأقلام عربية الحروف أجنبية الفكر ضالة المعتقد وأفكار مستوردة . التحرر عندهم الخروج من الدين.

والتقدم في فهمهم هو الجري في ساحات الإلحاد والتغيير المطلوب هو التقلب في عرصات الجاهلية الوثنية القديمة والحديثة والإبداع والتجديد هو نبذ العقيدة والتنكر للشريعة، والفن هو الاستكثار من صور العفن.